هارولد بنتر: قصائد مبكرة

الاصمّ وحده يسمع، والكفيف وحده يفهم!

تقديم وترجمة: صبحي حديدي*

■ مَن يصدّق أن هارولد بنتر، الفائز بجائزة الادب للعام 2005، هذا الضمير اليقظ الحيّ الناشط أبداً في عشرات القضايا السياسية، تعرّض ذات يوم لتهمة الإبتعاد عن السياسة في مسرحياته وقصائده؟ العجب يزول سريعاً، ويصبح تفهم التهمة نتيجة منطقية إذا تذكر المرء مقدار الأصالة في تلك النصوص التي لم تكن تسلم قيادها لتحليل لا يلحظ السياسة على السطح من جهة أولى، ويصاب من جهة ثانية بالكثير من الإرتباك إزاء أدب يشتغل على الصمت، ولكنه يستنطق شعرية الصمت؛ ويكشف مفردات الذعر الإنساني البسيط من الوجود العاتي، دون أن يكون وجودي الفلسفة؛ ويلتقط دقائق الحيثيات في الموقف البشري اليومي، دون أن يكون طبيعيّ النزعة؛ كما ينحرف كثيراً، وعن سابق قصد، بعيداً عن واقعية الواقع دون أن يغرق البتة في أيّ استيهام فانتازي استعراضي أو شطحة سوريالية مجانية.

وليس غريباً أن يدخل إلى الإنكليزية، وإلى قاموس أكسفورد أيضاً، إصطلاح الـ Pinte-resque المنحوت من اسم بنتر، والذي يفيد ذلك المناخ الدرامي الإنساني الخاصّ، المعقد والبسيط، المحليّ والكوني، الفردي والجمعي، الرحب العريض والضيّق حبيس الحجرة الواحدة، في آن معاً. ولم يكن بغير مغزى أن الأكاديمية السويدية توقفت عند هذا النحت مراراً وهي تطري بنتر، بل وتستزيد حين تنحت مصطلحاً ثانياً هو "الأرض البنترية" Pinterland، ذات "الطبوغرافية المميزة، حيث تتمترس الشخصيات خلف حوارات مباغتة، وبين سطور تهديدات لا حلّ لها يكون ما نسمعه علامات على كلّ ما لا نسمعه".

والحال أنّ الأكاديمية بدت وكأنها طربت لقرارها منح بنتر جائزة الأدب، فأخذت تتغنى بقرارها في غمرة إغداق المديح على فائز كبير يستحقّ كلّ المديح في الواقع. فالرجل أحد كبار أدباء هذا العصر، وهو على الأرجح أعظم كاتب مسرحيّ حيّ في اللغة الإنكليزية، وهو الذي ردّ المسرح إلى عناصره الأساسية، مثل الفضاء المغلق والحوار الصاعق والأنماط البشرية التي تخلق الدراما الكثيفة حين تتصارع وتتقاطع وتتلاقي وتفترق، ضمن خطوط حبكة في الحدود الدنيا، وتنويع عريض لأساليب مسرح العبث والمسرح الطبيعي والواقعي وتقاليد الفرجة. هذا فضلاً عن دوره في إغناء مدارس الإخراج المسرحي، والسيناريو السينمائي والتمثيلية الإذاعية.

وقد لا يعرف الكثيرون أنّ بنتر بدأ شاعراً، بل وكانت القصيدة هي أولّ منشوراته، قبل أن ينخرط أكثر فأكثر في الكتابة المسرحية والتمثيل والإخراج. وقصيدته "السنة الجديدة في ميدلاندز"، والتي كُتبت في مطالع الصبا، تذكّر كثيراً بمشهد الحانة في قصيدة ت. س. إليوت الشهيرة "الأرض اليباب". وأما قصيدته "سأمزّق قبعتي الفظيعة"، 1951، فإنها تمثل أوضح البواكير على موضوعة الإحتجاج العميق التي ستهيمن على أشعاره بعدئذ:

في سَكْنَة عدائية ذاتَ زمن ليس لأحد
الأصمّ وحده يسمع والكفيف وحده يفهم
الأميال التي أتلمّس طريقي عليها
كلّ الأرواح ستسكنني، وستشربني كلّ الشياطين.

وغنيّ عن القول إنّ معظم قصائد تلك المرحلة كانت تعكس مناخاً درامياً واضحاً، وكانت بذلك تنذر بالخيار الرئيسي الذي سيقتفيه هذا الفنّان الكبير: المسرح.

ولد بنتر سنة 1930 في هاكني، وهي منطقة عمالية صغيرة قرب إيست إند في لندن. وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية جرى إخلاء المنطقة، وعاد ثانية إلى لندن وهو في الرابعة عشر، وسيقول إنه لن ينسى أبداً مشاهد القصف الجويّ التي عاشها، والتي ستجعله مناهضاً للحروب بصفة عامة، وتدفعه إلى رفض أداء الخدمة العسكرية (أشفق القاضي عليه فاكتفى بتغريمه 30 جنيهاً بدل السجن). في عام 1950 بدأ ينشر في مجلة Poetry التي كانت تصدر في لندن، باسم مستعار هو هارولد بنتا. ثمّ عمل ممثلاً ثانوياً في الـ BBC، وبعد أربع سنوات من التجوال في إرلندا والمسارح الريفية كتب مسرحية "الحجرة" لصالح جامعة بريستول (وأنهى النصّ في أربعة أيام!)، ثمّ كتب تمثيلية للإذاعة بعنوان "ألم طفيف"، إلى أنّ أنجز أولى مسرحياته الطويلة "حفلة عيد الميلاد"، وتوالت بعدها نصوصه المسرحية الكبيرة التي جعلت منه أحد أعظم مسرحيي هذا العصر. وهو يعيش بين لندن وباريس، ومتزوّج من المؤرخة الشهيرة ليدي أنتونيا فريزر.

والناقد البريطاني مارتن إسلن (صاحب الكتاب الشهير الرائد عن مسرح العبث) ترك لنا هذا النصّ المدهش في امتداح شعرية لغة بنتر: "حوار بنتر منضبط متراصّ كالشعر الموزون، أو أكثر ربما. كلّ مقطع صوتي، وكلّ تصريف، وتعاقب طويل أو قصير للأصوات، والكلمات، والجمل، محسوب بعناية لكي يبدو بديعاً. وإنّ التكرارية على وجه أدقّ، وانقطاع الإتصال، وحلَقية الكلام العاديّ العامّي، تُستخدم هنا كعناصر شكلية تتيح للشاعر أن يؤلّف الباليه اللغوي الخاصّ به".

* ناقد من سورية يقيم في باريس

هارولد بنتر

قصائد لهارولد بنتر

القزم

رأيتُ القزم في قلب الفضاءات الرنانة،
تلك الليلة أعلى الذروة المزبدة.
ثمة الشجر المنحني، وثمة الوحش الصامت،
أسفل الرياح.

وأبصرتُ الرحّالة واقفين لابثين،
تغشاهم سكنة الموت، لابثين في التوابيت
ذلك المقام الساكن،
الأيدي متشابكة، والقبعات الطويلة شاخصة.
1950

مرج هامستد

ها أنني، المستلقي على العشب، استلقي
في قلب البرهة الصافقة بالرعد،
أقتلع الصوت
في التخم الأخضر.

حجارة في رحم الثمرة،
وعالم تحت العشب،
وحيداً أسفل الوحيد.

جسدي يستهلك الخطوط
الموصى بها، في خطّ النهار البياني.
ألاحظ النملة البنية
في أدغال شفرات النبات.

أنا بياض بؤبؤ عيني، أحذف
النملة من مرتبة القدرة،
أُنْقِصُ حميّة البذور
هذه اللحظة القاطعة.

تحت الذبابة الشفيفة
تخطو معادلة الحشرة إياها
فوق زجاج الكلمة المستدق،
وتصدر إرشادات للفراغ.
مكائد خارجية: قرقعة
الغاب؛ تجارة الضجيج
المستطيلة؛ ثمّ وقفة تلك
الأغصان العالية.
1951

الدراما في نيسان

وهكذا صار آذار متحفاً،
وتحركت ستائر نيسان،
أسافر في المعرض الخاوي
إلى آخر المقاعد.
في الديكور الربيعي
ينصب الممثلون الخيام،
وعلى ذبالة الضوء
يبدأون مسرحيتهم.
صرخاتهم في الظلام المغطى بالمساحيق
تتجمع في الحداد على
سفراء الأجنحة.
وثمة لوازم ودعامات تحت المطر
هي رماد الدار
وحجارة القبر التي لا تُحصى
في غمرة الخضرة.
أنتقل إلى الفاصل المسرحي،
وقد اكتفيت من هذه الفرقة.
1952

أنتَ في الليل

عليك، وأنت في الليل، أن تصغي
إلى الرعد والهواء المشّاء.
وأنت، على ذلك الشاطىء، سوف تتحمل
ما تأتي به الأجواء العاتية.

كلّ ما عزّ الأمل
سوف يتهاوى على لوح الإردواز،
ويكسر شوكة الشتاء
الذي يصخب عند قدميك.

ورغم أنّ المذابح اليتيمة تحترق،
والشمس المتلكئة
تجعل النسر ينبح،
فإنك سوف تطأ سراطاً مستقيماً.
1952

مسير على وتيرة انتظار

مسير على وتيرة إصغاء.
مسير على وتيرة انتظار.

إنتظرْ في غمرة الشتاء
المصغي، وسرِ صحبة العشب.

إسترح عند كأس الانتظار.
سرْ صحبة فصل الأصوات.

عدّ شتاء الزهور.
سرْ صحبة فصل الأصوات.

إنتظرْ قرب كأس أبكم.
إنتظرْ قرب كأس أبكم.
1953

ضياء النهار

ألقيتُ حفنة بَتْلات على ثدييك.
وها أنت، وقد أصابك ضياء النهار
بالندوب،
تستلقين صريعة البتلات.

وها جلدك يحاكي الغضارة، ورأسك
يتلفّت في كلّ جهة،
وتغمرك خرائب الزهور.

الآن أجلبك من الظلمة إلى رابعة النهار،
راصفاً بَتلة فوق بَتلة.
1965

هامش:
- من مجموعة Collected Poems and Prose, Faber and Faber, London 1991 والقصائد، وجزء كبير من المقدّمة، تُنشر بالإتفاق مع فصلية «الكرمل» الفلسطينية، العدد 86، شتاء 2006.

الطاهر وطّار: ما يبقى في الوادي غير حجاره

د. محمد عبيد الله*

«ما يبقى في الوادي غير حجاره.
اللاّز فقط ينبّه، بواسطة هذا المثل الشعبي.. إلى أن الأمور، كل الأمور مهما كانت أهميتها أو تفاهتها زائلة، وأن هناك سطحاً تمر فيه أمور، وقراراً أو عمقاً تستقرّ فيه أمور أخرى.. الأمور الثابتة».

بين السطح والعمق، بين الطارئ والثابت ظلّ الطاهر وطار طوال رحلته يراهن مثل (اللاز) على حجارة الوادي.. على ما يبقى بعد الزوابع والفيضانات.. وقد أصاب كثير منها المجتمع الجزائري الذي عبّر عنه وطّار وعاشه في العمق، واتخذ منه منجماً لإبداعه، فرصد تحولاته منذ حرب التحرير ومروراً بتحولات دولة الاستقلال، ووصولاً إلى تسعينات الدم وحقبة الإرهاب..

الروايات المبكرة للطاهر وطار غدت اليوم من كلاسيكيات الرواية العربية، بمعنى الثبات، وليس القدَم: اللاز، الزلزال، العشق والموت في الزمن الحراشي، الحوات والقصر، عرس بغل وصولاً إلى الروايات الأحدث زمناً: تجربة في العشق، الشمعة والدهاليز، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء.

عام 1936 ولد الطاهر وطار لأسرة ريفية بربرية، في إحدى قرى القبائل على سفح جبال الأوراس، تربى في بيئة أبوية، يقودها الجدّ ذو المركز الاجتماعي والحضور القوي، وعنه ورث الطاهر الكرم والأنفة، وعن أبيه ورث الزهد والقناعة والتواضع وعن أمه الطموح والحساسية المرهفة، أما خاله الذي بدّد تركة أبيه الكبيرة في الزهو والأعراس فقد ورث عنه الطاهر الفنّ.. هكذا يشير الطاهر إلى مؤثرات أسرته وبعض صفاته.. ولكنه لا يشير إلى الرغبة في المشاكسة وفي إثارة المعارك والزوابع من أين جاءته.. وهو الذي يبغض السكون والصمت، ويميل دوماً إلى تفجيره.. ليرى ما يمكن أن يرشح عنه.

في المراحل المبكرة من حياته تلقى تعليماً دينياً رصيناً، فتعلم القرآن وعلوم القرآن والفقه في مدارس جمعية العلماء المسلمين، ثم في معهد الإمام عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، وهذا التكوين شكّل أساس معرفته العميقة باللغة العربية وبالتراث الكلاسيكي، ولكنه اكتشف في قسنطينة إلى جانبه الثقافة الأدبية الحديثة، فقرأ ما وقع تحت يده، ثم راسل بعض الجهات المصرية واتصل بالثقافة المشرقية من خلالها، وانتقل عام 1956 إلى تونس، وفيها اطلع على نماذج من الرواية الحديثة المترجمة والعربية، وبدأ اتصاله بالفكر والأدب الماركسي، فوجده قريباً مما يرغب أن يعبّر عنه، فمال إلى الماركسية فكراً وثقافة، وأخفى ميوله عن جبهة التحرير الوطني التي بدأ انتماؤه إليها عام 1956.

وعندما بدأ أعماله الأولى، قصصاً وروايات كانت كتابته تنطلق من مبادئ الواقعية الاشتراكية التي ساعدته على قراءة تحولات مجتمعه، وتأمل صراع طبقاته.. أخذ من الماركسية التعبير عن النزعات الثورية والتحررية، وتأمل الصراع الاجتماعي ببواعثه وملابساته المختلفة.. وأخذ من الواقع الذي انخرط فيه حرارة التجربة وصدق التعبير.. ومع صعود الواقعية وصعود الرواية العربية في إطارها، انتشر اسم الطاهر وطار، وغدا اسماً مرادفاً للجزائر، ومفتاحاً أساسياً لمن أراد معرفتها كما تتجلى في كتابة نابعة من عمق جراحها وتحولاتها. وطوال عقود، لم يكن القارئ العربي (المشرقي خاصة) يعرف من الجزائر غير الطاهر وطار وروايات التي تحمل أسماء غريبة، وتقدم أجواء مشوقة جذابة، كما تنقل تجربة شعب عربي ترسخت صورته الاستشهادية المقاومة على مَدَى عقود المواجهة مع الاستعمار الفرنسي.

الطاهر وطار ذو الأصول البربرية، اختار الكتابة باللغة العربية، واختار الانتماء للثقافة العربية منذ البداية، وظل على مدى حياته واضح الموقف من الكتابة بالفرنسية، ومن التيار الفرانكفوني الذي نشط بعد الاستقلال، فأسهمت كتاباته في تشجيع التأليف والإبداع بالعربية، وكان لها دورها في المعركة الدائرة بين التيار العربي والتيار الفرانكفوني الذي لم يزل مستمراً حتى اليوم، وإن بأشكال متوارية أحياناً. وعندما تصاعدت المشكلة الأمازيغية، أدرك وطار بواعثها السياسية، فظل إسهامه فيها مرتبطاً بميوله العروبية والوطنية ثقافة ووعياً وإبداعاً، وظل حريصاً على وحدة النسيج الجزائري في مواجهة القوى المخادعة التي تحاول تضليله وتمزيقه.

من تنوّع المجتمع الجزائري وتناقضاته، كوّن شخصيته العميقة المركّبة، البساطة الظاهرية عنوانها، ولكنها بساطة خادعة، تخفي تجربة عريضة، وتكويناً خاصاً، لا يتيسّر لأحد، وحين يصف شخصيته يقول: «أنا رجل زاهد ورجل متصوف وصاحب قضية موجودة على الساحة. وأبذل حياتي من دون أي تردد. ومعرّب أعرف الفرنسية، وبربري أكتب باللغة العربية، وابن فلاح وابن المدارس الدينية». ويضاف إلى ذلك تجربته السياسية الطويلة في جبهة التحرير الوطني من 1956 ـ 1984، وقد عمل في إطارها عضواً في اللجنة الوطنية للإعلام، ومراقباً وطنياً مكّنته وظيفته من السفر إلى مختلف الولايات الجزائرية والإطلال بعمق على الواقع الجزائري، ثم شغل منصب مدير الإذاعة الجزائرية.. كل ذلك أغنى تجربته وعمّق اتصاله بمجتمعه، وفتح كتابته على آفاق الواقع المتدفّق.. أما الماركسية فكانت خياراً فكرياً مساندا في تكوين رؤيته ومنهجه التحليلي العميق، ولكنها ليست ماركسية خالصة، بل لا يمكن فصلها عن مختلف العوامل التي تداخلت في إهاب هذا المثقف المختلف.

أواخر الثمانينات أسس وطار وعدد آخر من المثقفين (الجمعية الجاحظية) التي يعمل وطار رئيساً لها، وهي ليست جمعية عادية، فقد حولها وطار إلى بؤرة ثقافية عربية، تؤمن بالديمقراطية من خلال شعارها (لا إكراه في الرأي) وتعتني بالكتاب العربي رغم الظروف الصعبة، وإذا ما قادتك رحلتك يوماً إلى (الجاحظية) فلن تستغرب وجود الفتيات المحجّبات على نحو لافت، ولن تستغرب الجو المحافظ الذي يجلّل الجمعية ويخترق هواءها.. إنها من الأماكن المركزية التي تؤكّد لك عروبة (الجزائر) وعروبة ثقافتها وحضور الإبداع العربي فيها... سترى صورة (يوسف سبتي) والمكتبة المسماة باسمه، وهو واحد من المثقفين الذين قضوا نحبهم في مرحلة الدمّ، أما الطاهر وطار فسيقول لك إنه لم يحتج إلى أية حماية طوال تلك الحقبة، وستعرف أنه المثقف الوحيد الذي احتج على إلغاء الانتخابات البرلمانية التي فاز بها الإسلاميون عام 1992، وهو ما خلّف كل ذلك السيل من الدماء.. وبسبب من موقفه ذاك جرى تهميشه ووجهت إليه اتهامات قاسية من الأوساط الثقافية، لكنه ظل مدافعاً شرساً عن مواقفه الديمقراطية، رافضاً لقتل المثقفين مهما تكن انتماءاتهم...

وطار بوجوهه المختلفة، بطبقاته المركبة، بمعاركه التي لا تنتهي، عنوان عريض من عناوين الثقافة العربية في الجزائر... وبقاء اسمه وإبداعه يعيدنا مجدداً إلى المثل الشعبي المرتبط باللاز، الشخصية الروائية الشهيرة، التي أبدعها وطار نفسه «ما يبقى في الوادي غير حجاره».

* شاعر وناقد من الاردن
mmobaidd@yahoo.com

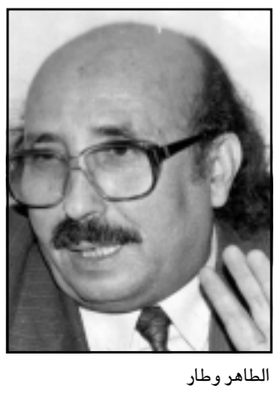

الطاهر وطار

شاهد من أهلها

بيان ثقافي رقم 1

خيري منصور*

■ بدءا، آمل من أصدقاء وزملاء طالما همسوا بأذني وآذان سواي بأن ضيق التنفس قد أصابهم بسبب ما مبثوث من أكاسيد الفساد الثقافي أن لا يلوذوا بالصمت أو أن يمسكوا العصا من منتصفها لأنها ستنزلق حتما ذات يوم من القبضة المعروقة إلى أحد طرفيها، إضافة إلى أن من يمسك العصا أو القلم لا فرق من منتصفه سيجد أنه المضروب به مرتين حتى لو حاول أن يضرب شخصا آخر..

لقد تجاوز السيل الزبى، ولم يعد الخجل ضمانة أخلاقية لوضع حد لهذه المتوالية الصفراء، بعد أن تحول التاجر إلى شاعر يشهر صوته كالعورة في وجوه شعراء كابدوا من شقاء العيش وشظف السياسة وكدح الإبداع، ضامنا الصمت أو التواطؤ كي تتحول المسألة إلى مقايضة، تتخلص في عبارة واحدة اصمت عني.. وسأتكلم عنك أو معك تحت إضاءة تسلي ربات البيوت ومن يبحثون عن سبيل لتزجية ليل عربي طويل، مهدد بالكوابيس.

في السياسة كان للفساد قدر تعلقه بالطغيان والاستفراد وحظر تداول السلطة جملة أسباب يعرفها معظم الناس، لكن ما نود التوقف عنده منها هو ببساطة إسهامنا الشعبي على تفاوت النوايا في تغذية وإرضاع هذا الفساد، فالرئيس أو الحاكم وكل سلالته ينعمون عندما يحظون بالسلطة بمعصومية دونها بوليصات التأمين كلها.. وما أن يترجل عن المقعد حتى تبدأ تصفية الحسابات، بحيث يسدد هو وذريته مديونيات يضاف إليها الكثير من الربا السياسي والاجتماعي.. لهذا يجد الزعيم نفسه مدفوعا بقوة خارقة للحفاظ على ما ينعم به، خشية الهجران والعقاب وسأذكر حادثتين فقط، إحداهما عشتها على نحو مباشر والثانية شاهدتها شأن الملايين على إحدى الفضائيات.

الأولى.. دخلت ذات يوم على صديق في بغداد كان ضابطا في الجيش العراقي عام 1948 ويعرف قريتي وبعض أقاربي، وكنت أزوره بانتظام لأسمع منه ما لم أقرأه مكتوبا، خصوصا بعد أن لفت الراحل د. هشام شرابي انتباهي إلى ما سماه التاريخ الشفوي وقدم نموذجا رائدا في هذا السياق عن روايات شفوية لصالح برانسي الذي التقاه في الولايات المتحدة.

كانت سيدة يبدو عليها الوقار رغم الإفراط في الماكياج تجلس بجانب الرجل، ولم أعرفها بالطبع، ثم قال لي صديقي هامسا انه يبحث عن صحيفة تصدر بالإنكليزية لنشر إعلان عن بيت من طابقين من أجل تأجيره لأجانب، لأن أصحابه يشعرون بالحرج من ذكر اسمهم أو اسم العائلة.. ثم عرفت أن البيت المعروض للإيجار هو للسيدة زوجة الرئيس العراقي الأسبق عبد السلام عارف، وكان العراق في ذلك العام من نهاية السبعينيات ينفق ملايين إن لم يكن مليارات الدولارات على بيوت في بغداد والقاهرة ولندن وباريس وروما، يعيش فيها ضيوفه من المثقفين والساسة العرب المتقاعدين أو الباحثين عن مستأجر سياسي!

وأذكر أنني همست بأذن صاحبي قائلا، إن من حق من يتولون السلطة في هذا العالم العربي أن يرفعوا شعار قاتل أو قتيل، ما دام الأمر على هذا النحو، لكن صاحبي صحح لي العبارة وقال إنهم يرفعون شعار قاتل أو قاتل لأنهم أدرى منك ومني بما يحدث لهم في المرتين في الإقبال والتصفيق والإدبار والتصفير!

الحادثة الثانية شاهدتها قبل أسبوع على شاشة إحدى الفضائيات، وهي حوار متلفز وطويل مع كاميليا السادات ابنة الرئيس أنور السادات فقد قالت انها باعت ما تملك، وتعيش في ملجأ ولست معنيا هنا بتصديق أو تكذيب السيدة ابنة الرئيس، لكن المجال متروك لخيال القارئ العربي أو ما تبقى من هذا الخيال بعد أن قضمه الواقع الأغرب منه.

***

مقابل هذه الوقائع السياسية التي أدت إلى تشبث أهل السلطة بمقاعدهم حتى لو تحولت إلى توابيت، ثمة وقائع ثقافية غذت الفساد الثقافي، سنذكر منها عينات فقط...

فمن يعمل وزيرا للثقافة سواء كان شاعرا أو روائيا أو فنانا لا بد أنه يبذل الكثير من الجهد لصد ما أمكن صده من محترفي الإطراء ومن الحُطيئات المعكوسين أو المقلوبين على ظهورهم ذلك لأن كل لعاب يسيل على العتبات دافعه بدءا من النشر والمكافآت والتوظيف.. حتى السفر والمشاركة في اللجان.

وقد عرفت من صديق عمل وزيرا لعدة عقود في إحدى عواصم العرب أن عشرات من الكتاب والشعراء والصحافيين كانوا يتقاضون من يده مرتبات تعف عنها البغايا، لأن بعضها لا يتجاوز العشرين دولارا أمريكيا!

إن المثقف أو ربع المثقف أو المحسوب زورا على المثقفين لأنه يحمل بطاقة عضوية في أحد الأندية إذا ما قيض له أن يصبح مسئولا أو رئيس تحرير مجلة أو مديرا لتليفزيون أو مديرا لمهرجان أو ملحقا ثقافيا، فهو على موعد مع دراسات نقدية وقراءات بأثر رجعي لنصوصه المهجورة، إضافة إلى تحوله إلى زبون دائما لكل الفعاليات المماثلة للفعالية التي تورطت به.

يترتب على ذلك أن موجة من الذين كانوا للتو نكرات.. يطفون على سطح المستنقع، لأن السرخس يعقد كل صباح معاهدة مع الطحلب وأي تجفيف للمستنقع أو تعقيم لمائه قد يجرف كل السراخس والطحالب معه إلى الأبد!

ويترتب على هذا أن تنشأ أوهام لدى من لا حضور إبداعياً لهم، بحيث تفتح شاعرة شابة تخطئ في نون النسوة وواو الجماعة إضافة إلى ألف الاثنين في وجه شاعر معروف ومكدود.. لتقول له: أنت.. أنت.. أنت تبدي رأيك في شعري!!

ويترتب على هذا أيضاً، أن تصدر الكتب عن هيئات رسمية بمكافآت استثنائية لمن يعتاشون على التسول ولملة قشور النصوص، فيما يبتلع مبدعون مشهود لهم ريقهم المر، لأن كبرياءهم الثقافي والإنساني يحول دون طرق الأبواب..

***

من كان وزيرا أو مديرا لمهرجان أو ملحقا ثقافيا أو سفيرا لبلاده أو ذا منصب في النشر، جرب نفسه ما نحاول أن نقول على صعيد نظري مجرد، فقد انصرف عنه الذباب لمجرد أن تلاشت الحلوى على مائدته، ورأت فيه العاشقة الشابة ذلك الأعور رغم أنها طالما تغزلت بعينه الوحيدة!

لهذا يدافع هؤلاء عن مناصبهم ووظائفهم بكل ما امتلكوا وما لم يمتلكوا.. وهم لا يدرون أن سواهم ممن يتناسون وجودهم عفوا عشرين مرة عن وظائفهم.

إنهم يضطرون للانحناء حتى يلامس الجبين القدم كي لا يفتضح التقاعد أو البطالة عريهم الإمبراطوري، وقد يضطرون لالتهام الصراصير والديدان إذا طلب منهم ذلك كي لا يعودوا عراة إلا من كتاباتهم!

ولهؤلاء سايكولوجيا لم يجسدها أحد مثلما جسدها «موريس» في كتابه «القرد العاري» الذي أوشك أن يعثر فيه على الحلقة المفقودة بين الأورانج أوتانج والإنسان.

سايكولوجيا تدفع الذكر الفخور بذكورته أمام شقيقته وامرأته إلى أن يتقمص الأنثى في أقصى درجات الامتثال والرعوية كي يسترضي سيدا أو ولي نعمة.

وحسب سايكولوجيا هذا القرد العاري، فإن الصوت الجهوري في المقهى يصبح خفيضا ورخيما أمام الأعلى والأرفع مكانة.

إن كل ما يحتاجه الناس الذين عزفوا منذ زمن طويل عن القراءة هو ضبط مثقفين متنفجين حسب وصف الجاحظ وهم متلبسون بهذا العري وبهذه المراوحة الكوميدية بل التراجيكومدية بين الأنثى والخنثى..

***

سأستعيض عن الهوامش انسجاما مع شروط هذا المتن بالأمثلة..

أولا: تنشر إحدى المؤسسات ذات السمعة القومية كتابا خلال ثلاثة أيام فقط.. لأن أحد خبرائها مدعو لمهرجان. والوسيط هو المترجم.

ثانيا: يطلب مني مدير مؤسسة ذات باع في النشر والتزوير أن اذكر اسمه ولو مرة واحدة في أي سياق مقابل إعادة نشر أعمالي كلها أو معظمها وبأجر لم أحلم به.

ثالثا: يطلب مني مترجم شهير أن أتوسط له مع جهة ذات شأن ولها اهتمام بالثقافة مقابل ترجمة ديوان خلال أقل من شهر وإصداره من دار معروفة في عاصمة أوروبية.

رابعا: في المرات التي عملت بها محررا ثقافيا أو خبيرا في شؤون التأليف وشجون النشر بدءا من مجلة «أفكار» الأردنية عام 1973 مرورا بالأقلام العراقية والفكر العربي المعاصر اللبنانية وانتهاء بالدستور الأردنية ورفضت عشرات وربما المقالات التي تخصني، كتبها أناس معظمهم الآن على قيد الحياة، وكانت المقايضة واضحة في كل المرات.. وهي الكتابة عني مقابل النشر لهم، ولا بد أن عشرات الزملاء العرب الذين تولوا منابر ثقافية جربوا ما جربت، وكان منهم من قبل بدور الطحلب ومنهم من لم يقبل.

***

أحيانا يؤدي التهميش على اختلاف دوافعه وأنماطه إلى خلق شبكة من العلاقات بين المهمشين هي أقرب إلى المنظمة السرية أو إلى العصابات أو إلى النقابات غير المعلنة للمتسولين أو البغايا..

وهذا التوصيف ليس إدانة لضحية التهميش بقدر ما هو محاولة للبدء في تحريضها على التحرر، وما يحدث الآن، هو أن شبكة من العلاقات التي تحتكم إلى معيار لا صلة له بالإبداع بدأت تحكم ما يشبه الحزب أو المنظمة السرية، وهناك كتاب ومثقفون وشعراء عرب يشعرون باغتراب لا حدود له عن القطيع، ويرفضون الاشتباك معه على عشية أو أمسية أو بطاقة دعوة..

و إذا استمرت هذه المتوالية، فإنها ستنتهي حتى إلى فك آخر ارتباط بين الناس ومن يكتبون باسمهم أو لهم، هذا إذ تجاهلنا من يلبسون لكل أمسية أو مقالة لبوسها، فإن كان عدد من يحضرون أمسيتهم عشرة أو أقل من المبشرين بالشعر الخالص فالرد الفوري هي أن الكتابة ليست لملايين الجهلاء.. وإن حدث العكس فالشكر والعرفان لجهل صحا من غيبوبته وتاب!

ومن لا يهمه حسب ما يقول عدد من يشترون نسخا من كتابه.. يخرج عن صمته ويقيم الدنيا إذا أبلغه الناشر أنه باع ستين نسخة!

***

إذا كان الفساد كما يقال متعدد الرؤوس فإن له ذيلا واحدا، أو دابرا واحدا كما يسمونه وكما يهددون بقطعه.

فساد الثقافة هو فساد الملح، الذي حذر منه السيد المسيح، وهو سبب الفساد السياسي وليس من محاصيله كما يروج لبعض واضعي العربات أمام الخيول أن يقولوا!

* شاعر وكاتب من الاردن